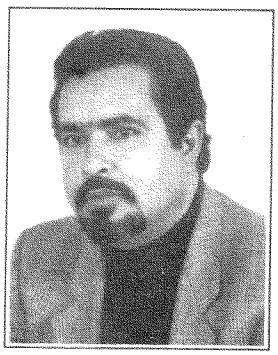

محمد الدغمومي

موعد مع...

أوقدت مصباح الفراش فأضاء مصباح السقف. استغربت كيف حدث هذا، ثم تبين لي أني لم أفتح عيني قط أو أن يديّ لم تغادرا مكانهما تحت الغطاء. سألت نفسي: «هل أنا نائم أم يقظان؟؟» وأجبت: «ربما كنت أحلم بأني يقظ». ثم قلت: «كلا، إني يقظان بالفعل ـ وهذا جرس الهاتف يرنّ، وهذه يدي تلتقط السماعة»:

ـ «ألو... السي النائم! عفواً السي... أنا السي...»

لم ألتقط حروف الاسم جيداً، وهممت أن أقاطع صاحب الصوت وأسأله، لكنه اسمتر متحدثاً:

ـ «عفواً إذا كلمتك في مثل هذه الساعة المتأخرة، أنا أعرف أنك تستعد اللحظة لأداء صلاة الفجر كعادتك،.. اسمع، لقد وصلت الآن إلى مدينة الرباط. وأنا لا أعرف أحداً سواك بها، هل تسمعني؟! أريد أن أراك لأمر هام. ما رأيك؟؟ الساعة الثامنة بمحطة القطار، بمقهى محطة القطار، «القطار» هل تسمعني..؟! الثامنة... قبل أن تذهب إلى عملك...»

ورن جرس الهاتف ثانية وثالثة، وتعمدت أن أعرف في النوم، أن أحلم فعلاً. ورأيت ساعة بعقارب كثيرة تؤشر على أوقات مختلفة، وصوتها يطقطق في أذني ويحثّني على الاستيقاظ...

نظرت إلى ساعة يدي وأنا أدخل مقهى المحطة. ثم نظرت إلى ساعة أخرى معلقة داخل المقهى تشير إلى وقت آخر: الرابعة بدل الثامنة... بحثت عن مائدة شاغرة وجدتها عند نافذة المقهى. جلست. رأيت سكة الحديد. عدت بنظري إلى داخل المقهى، صرت أبحث عن وجه أعرفه. فاصطدمت بعيون وظهور كانت بدورها تبحث عن مكان داخل المقهى. أحسست بطعم العزلة، فقفزت وراء النافذة وصرت أراقب زحاماً بشرياً امتدَّ جوار السكة. بعض الناس كانوا يمسكون بأطراف ثيابهم، ويعاندون ريحاً باردة. تذكرت لسعة البرد وقطرات المطر وأنا أقطع الطريق إلى المحطة. شعرت بقشعريرة طفل يتململ تحت ثيابي سرعان ما طرده كائن وقف بغتة على رأسي، في هيئة شبح أبيض أسود وأخرس. ورفعت بصري إليه، ودون تردّد أمرته بلطف:

ـ «قهوة بالحليب...»

انصرف الكائن الشبح وقد استوى في خلقة نادل. حلّ محله شبح آخر لبائع جرائد. وضع واحدة على مائدتي وتحرك نحو موائد أخرى يسترجع ما تركه عليها أو يتقاضى ثمنها ثم عاد، التقط ثمن الجريدة، ثم استدار فاصطدم بجثة النادل الذي دفعه دفعاً قبل أن يضع كأساً على مائدتي ويتراجع تاركاً صوت احتجاج، مكبوتاً في صدري. قلت معزّياً نفسي: «لا بأس. أشرب القهوة السوداء...» أفواه أخرى كانت تنطق مثلي راضية: «لا بأس... أنت لا بأس عليك...» أو تثرثر هنا وهناك، قبل أن يرتفع صوت رجولي غاضب: «ألا تفهم! قلت لك قهوة سوداء وليس قهوة بالحليب...» عاتبت نفسي: «لو كنت أنا الذي احتج في البدء لما احتج الرجل...» بحثت عن الرجل صاحب الصوت، فلم أهتد إليه. تعثرت نظراتي بكسوة عسكرية وبعيون شرهة منغرزة بسيقان أنثوية، ثم بألوان زاهية حمراء، صفراء، خضراء، وألوان أخرى، وأصابع تعابث بين الحين والآخر خصلات شعر. وشفاه تقطر دماً وشهوة، تعض كلمات وتتلقّف العيون التي تتساقط عليها فتلصق بحمرتها. تفترسها. تساقطت أنا. علقتُ تشفتيْ امرأة صامتة، ووجدت أن قمة العزلة أن أجد نفسي نفسي معلقاً بشفة امرأة لا تعيرني انتباهاً... سخرت من نفسي واكتشفت أن قمة العبث أن تنتظر شخصاً لا تعرفه أو لا تعرف من يكون بالضبط ثم تنسى أنك تنتظره.

قلت: «كلّا، قمة العبث أن تجد نفسك في هذا الضجيج دون أن تجد فرصة لتقول كلمة». وصرت أبحث عن وجه أعرفه فلم أجد أحداً. استسلمت للضجيج. أرهفت السمع وشرعت في التمييز بين الأصوات: رنين الملاعق والكؤوس، رنّة الآلة الحاسبة، خشخشة أوراق وجرائد. تذكرت الجريدة. التقطت ضحكة متعهّرة واصطكاك أضراس ثعلب مقنع بوجه آدمي. أضرسني احتكاك أحذية. انتبهت إلى نغمات آلة نحاسية، وبقيت أصوات أخرى مبهمة تشبه غمغمة أو أنفاساً محبوسة.

امتدت يدي إلى الجريدة. تذكرت القهوة السوداء. شدني عنوان

بخط كبير أعدت قراته مرتين: «الموتى يملأون شوارع مدينة «كاف». بجنوب إسبانيا» شرعت أقرأ سطور الخبر. ارتجّت أرض المقهى تحت قدمي وانفجر صوت بركان في الأسفل، تحت الأرض. أدركت أن القطار يدخل اللحظة إلى المحطة. تمسكت بالسطور. تدافعت الكلمات. ورأيت الموتى يتجولون في مدينة «كاف» ويتركون قبورهم وحفرهم.. يبحثون عن أهاليهم أو ينتقمون.. «وبعض الموتى كان مصاباً بالجنون ويتلذذ ببث الرعب بين المارة أو يسرق الأوراق والأقلام من الدكاكين...» نظرت إلى الساعة فسألني صوت من الخلف «الساعة من فضلك؟» التفتُّ إلى صاحب الصوت: «الثامنة وخمس». حدقت فيه متطلعاً إلى لباسه الأنيق وربطة عنقه الفاقعة الألوان. لم يكن ينظر إليّ. كان يتمتم بكلمات التقطت بعضها: «الدنيا بخير الآن... الأمور تمضي كما قُدّر لها». ثم يفطن إليّ فيبتسم ويبتلع كلمات أخرى أوشكت أن تنفلت من شفتيه. يعض على أخرى مع بقية خبز مشوي يتبعها بجرعة قهوة ممزوجة بالحليب. يرشقني بنظرة غاضبة فأشيح بوجهي عنه. أتركه يعدل ربط عنقه ويبتلع صورتي أيضاً. قفزت بعيني إلى جهة السكة. رأيت القطار رابضاً يبتلع بشراً ويقذف بآخرين. عدت إلى الجريدة وتابعت الخبر، معلقاً هذه المرة. صدقت في البدء ثم كذبت ما صدقته مباشرة، ولم أكلف نفسي البحث عن دليل أو حجة، لأن الموتى ليسوا بحاجة إلى العودة. هم دائماً أحياء بيننا. من يمنع شخصاً تخلى عن جسده أن يغادر قبره! الموتى يتركون أجسادهم تحت التراب ليندسوا في ثيابنا. أحياناً يتآمرون علينا وأحياناً يصنعون مفاجآت سارة نحسبها مجرد صدفة. أنا شخصياً أشعر بوجودهم، لكنني لا أستطيع لمسهم ولا أستطيع أن أميز بينهم من هو الجدّ أو جدّ الجدّ أو الأب. أحياناً يتدخلون في حياتي، وأحياناً أسمع همسهم، وأحياناً يهمسون في أذن من لهم صلة بي فيتسببون في خلق سوء فهم بيني وبينهم. هل كانت صدفة ـ مثلاً ـ أن يأتي النادل بقهوة سوداء! هل كان حديث الرجل الجالس خلفي ـ معي أو مع واحد من الموتى!!

استعدت شيئاً من المنطق وكذبت الخبر. نظرت إلى الساعة: الثامنة وسبع. طويت الجريدة وتملكتني رغبة الاحتجاج: «لماذا تأخر عن الموعد؟» عدت أتفحص الوجوه. هاجمتني عين امرأة وقحة. أطرقت. تابعت خطوات قدمين حافيتين تتحركان وتقتربان. كانتا قدمي متسول بدون شك. تجاهلتهما في انتظار أن يتكفّل النادل بالباقي. لكنهما تسمرتا قريباً. شممت رائحة عفنة فلم يبق سوى أن أتخلص منها بسرعة. التقطت درهماً ومددته باتجاه صاحب القدمين متعمداً عدم النظر إليه. تحركت أصابع عظمية باردة، لمست يدي. أمسكت الدرهم ثم قذفته بقوة فاصطدم بالمائدة وتدحرج بعيداً بين الأقدام ليستقر في مكان ما على الأرض. هاجمتني عيون كثيرة. تحفزت لرد الإهانة بنظرة غضب. بحثت عن كلمات نابية ورفعت نظري إلى وجه المتسول فوجدت نفسي أهرب من وجه متشقق، بشع، وعينين غشيهما صديد أصفر، ولم أجد مكاناً أختفي فيه سوى الصمت. انطويت على نفسي أغالب رغبة قيء. صفعتني كلمات لم يغب عني مصدرها: «إيه كبرت... صرت تتصدق عليّ... صرت رجلاً أيها المغرور!... لكني لا أبحث عنك أنت...» تحركت القدمان خطوة إلى الخلف، وسمعت الصوت نفسه: «وأنت يخيل إلي أني أعرفك!!. أنت. إيه!. جاري الذي قتل ابنة الجيران! أنا هو الشاهد الوحيد في قضية بقيت مجهولة». زعق صاحب ربطة العنق الفاقعة بلهجة احتقار: «اذهب أيها المجنون من هنا . اذهب وتسوّل بعيداً...»

جاء النادل مهرولاً. تشجّعت وقرّرت أن أرى المشهد كاملاً. توقّعت أن يكون عنيفاً. لكن النادل اكتفى بأن يبدي اشمئزازاً من الرجل وأن يشير إليه بيد مهددة. وبحركة تعني ما يودّ قوله «برّه... برّه... برّه...» تعلقت عيناي بالوجه المتشقّق منتظراً رد فعله. استرق النظر إليّ بدوره. وبدون مبالاة ظل واقفاً ثابتاً في مكانه منشغلاً بإدخال يده في جيب سرواله الخلفي قبل أن يخرج منه حزمة أوراق مالية ذات ألوان باهتة ويبسطها أمام النادل بكبرياء: «خذ... أنا أؤدي ثمن ما شربه هذا المغرور وهذا السفاح... خذ». التقط النادل الأوراق وصار ينظر فيها باندهاش بينما توجه صاحب الوجه المشقّق نحو باب المقهى مختالاً مظهراً، عن عمد، ابتسامة مرعبة.

ضحك النادل وهو يدس الأوراق في جيبه ويخاطب صاحب ربطة العُنق: «من أين يأتي هؤلاء!؟ لقد كثروا!!» عقّب الآخر: «وحدهم يعثرون على كنوز لا قيمة لها...»

سألت نفسي: «ما معنى هذا؟ ماذا يعني هذا وذاك» عاتبت نفسي: «لماذا ما زلت منتظراً!». قمت واقفاً. ثم عدت إلى الجلوس. تذكرت كأس القهوة. أخذت رشفة وامتعضت. تذكرت مرة أخرى أني نسيت وضع السكر فيها.. وقررت مع ذلك أن أشربها بدون سكر. سألني صاحب ربطة العنق: «كم الساعة؟» فلم أجبه. هز كتفيه وانتصب واقفاً. سمعته يلعن فلعنته وكررت اللعنة نفسها بيني وبين نفسي: «صباح ملعون وموعد ملعون...». ألقى إليّ نظرة مع ابتسامة ملاطفة وانصرف خارجاً.

قلت «الآن لا عُذر لي! لا بد أن أخرج أيضاً». رن جرس يشبه جرس الهاتف في مكان ما وانقطع. انفجر صوت البركان فغادر القطار مكانه وترك المحطة، بحثت عن وجه أعرفه للمرة الأخيرة فلم أجده. قمت. نظرت إلى الساعة: «الثامنة وعشر...» تحركت وغادرت المقهى. وجدت الريح الباردة وقطرات المطر في انتظاري. هزّتني قشعريرة عجوز يسكن قرارة نفسي ويتململ داخل جسدي ويفغر فاه رافعاً وجهه للسماء ليشرب ماء المطر ثم ليلاحق بخياله عقارب ساعة تؤشر على مواعيد مختلفة وضائعة.